

الفصل الرابع

بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي المباشر

حكم آق سنقر في حلب • تتش ومحاولاته لنيل
السلطنة • حكم رضوان بن تتش في حلب. حكم
دقاق بن تتش في دمشق • نهاية حكم أسرة
تتش في الشام •

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله
بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال (الرعد ١٣/١٦) •
سنة تسعين وأربعمائة :

في مستهل شهر ربيع الأول منها اجتمع سقة كواكب في برج
الحدوت وهي: الشمس والقمر والمشتري ، والزهرة والمريخ ،
وعطارد ، وذكر أهل صناعة النجوم أنهم لم يعرفوا اجتماع هذه
الكواكب في برج في قديم الزمان وحديثه ولا سمعوا ذاك... وفي السنة
كان مبدأ تواصل الأخبار بوصول عساكر الفرنج من بحر
القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة ... وفي شعبان ظهر الكوكب
نوا الذؤابة من الغرب ، وأقام طالوعه تقدير عشرين يوماً ثم
غاب (١)

إن ما نملكه من معلومات عن حكم تتش في دمشق قليل ولا يفي

بالغرض، ذلك أن ماجاء من معلومات في مصادرنا المعروفة، وخاصة تاريخ دمشق لابن القلانسي، تتناول العلاقات الخارجية لتتشمع أعماله التوسعية، ولا تتحدث عن طبيعة حكمه في دمشق، ولا عن علاقاته بالدمشقيين ثم هي لاتبين كيف صارت احوال هذه المدينة في زمنه بعدما حل بها ما حل على يد اتسز .

هذا ولم تصلنا ترجمة مطولة لتتشمع . فترجمته عند ابن عساكر قصيرة وغير كافية، ثم إن المجلد الذي يحوي حرف التاء من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم يعد في حكم المفقود، يضاف الى هذا ان ما من أحد من المؤرخين - في حدود معرفتي - قام بوقف مؤلف خاص حول حكم تتشمع واسرته في بلاد الشام .

إن اهم ما في حكم تتشمع هو علاقته بأق سنقر قسيم الدولة الذي خلفه السلطان ملك شاه وراءه واليا على حلب، وفي إطار هذه العلاقة تدخل أعمال تتشمع التوسعية ثم مساعيه لنيل السلطنة . ومن حسن الحظ ان ماوصلنا من كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب يحوي ترجمة جيدة لأق سنقر، ومن هذه الترجمة التي نشرت مع ملاحق هذه الدراسة، التي تدشر لأول مرة، ثم مما جاء في مصادرنا من معلومات - وهي كمية لا بأس بها، لأن أق سنقر كان أبا لزكي مؤسس الدولة الأتابكية وجدا لنور الدين الشهيد بطل الحروب الصليبية الحقيقي - يمكننا أن نكون صورة مفيدة وشبه واقية عن حكم أق سنقر في حلب وبالتالي عن علاقته بتتشمع .

لقد دام حكم أق سنقر في حلب ما يقارب السبع سنوات ، وكانت فترة الحكم هذه فترة هامة في تاريخ حلب وشمالى بلاد الشام لأنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة، ونحن نجد أق سنقر في روايات المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه الفترة واضح الشخصية، بارزا وراء كل حدث، ممدوحا بشكل كبير لا لأنه كان والد زنكي وجد نور الدين محمود بل لأنه «أحسن فيها حلب - السياسة والسيرة، وأقام الهيبة، وجمع الذعار ، وأفنى قطاع الطرق ومخيفى السبل ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع،

فاستأصل شأفتهم، وكتب الى الأطراف ان يفعلوا مثل فعله لتأمين الطرق، وتسلك السبل، فشكر بذلك الفعل وأمنت الطرق والمسالك، وسار الناس في كل وجه بعد امتناعهم لخوفهم من القطار والأشرار وعمرت حلب في أيامه بسبب ذلك، بورود التجار إليها والجلابين من جميع الجهات، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم* ورخصت الأسعار في أيامه الرخص الزائد عن الحد، وقرب الحلبيين وأحبهم الحب المفرط، وأحبوه أضعاف ذلك وأقام الحدود، وأحيا أحكام الاسلام وعمر الأطراف، وأمن السبل، وقتل قطاع الطرق، وطلبهم في كل فج، وشنق منهم خلقا، وكان كلما سمع بقطاع طريق في موضع قصده، وأخذه، وصلبه على أبواب المدينة، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار، وعامل أهل حلب من الجميل بما أحوجهم ان يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر» *

« وفي أيامه جدد عمارة منارة حلب بالجامع في سنة اثنتين وثمانين (١٠٨٩ م) واسمه منقوش عليها الى اليوم، وهو الذي أمر ببناء مشهد قرنبيا، ووقف عليه الوقف، وأمر بتجديد مشهد الدكة » (٢) .

لقد كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لحلب أخذ فعليا مكان أميرها العربي، وفي حين أننا نجد ان نفوذ آق سنقر وسيطرته ينفذان عميقا في كل جانب من جوانب الحياة في شمال بلاد الشام، نجد ان سلفه الأمير العربي كان يعيش في قلعة حلب شبه منعزل عن مباشرة الحكم بنفسه، ولم يكن ليهتم إلا بسلامة حكمه وجمع الضرائب ولذة عيشه، لهذا أثر الأمراء البدو قليلا في الحلبيين، وفي الواقع كانت حلب تدار من قبل رجالات المدينة، فالأمير البدوي يهتم عادة بحماية قبيلته من الخطر الخارجي وليس من شأنه التدخل في الشؤون الفردية والخاصة بأفراد القبيلة، وعلى عكس هذا تماما كان آق سنقر الذي فرض نفسه على كل أمر وتدخل في كل قضية، وصرف اهتمامه الى شؤون الامارة من صغيرة وكبيرة، وأشرف بذاته على تنفيذ كل أمر، ولم يتساهل حتى مع الحيوانات في مخالفة

أوامره ، وأخذ بفكرة المسؤولية العامة، كما طبق مبدأ العقوبة الجماعية •

يروى ابن العديم بأن آق سنقر: « كان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل، أو أحد من الناس، غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده القوا رحالهم وناموا، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته »، ونادى آق سنقر ، في بلد حلب لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده، فخرج يوماً يتصيد فمر على قرية من قرى حلب، فوجد بعض الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر الذير ورفع على دابة ليحمله إلى القرية، فقال له: ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه ؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه، وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى الذير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ، ونرفعه لذلك •

فعاد قسيم الدولة من الصيد، وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في بلد حلب، فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب •

قلت (أي ابن العديم) وهي إلى الآن (القرن السابع هـ / الثاني عشر م) لا يوجد في بلد حلب منها شيء إلا في النادر دون غيرها من البلاد » (٣) .

لقد كان آق سنقر يتصرف في حكمه تصرف حاكم مطلق له مبادئه الخاصة ومفاهيمه الذاتية، ولاغربة في هذا، فهو قد نشأ وتدرّب في البلاط السلجوقي في إيران، وفي هذا البلاط تكونت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة، ولقد كانت تقاليد هذا البلاط « أوتوقراطية » قد نبعت من أصول تركية تأثرت تأثراً شديداً بتقاليد إيران المسلمة، ولقد جاء تطبيق هذه المبادئ في شمالي بلاد الشام لأول مرة، بتجربة جديدة جد خطيرة على أناس اعتادوا منذ قرون عديدة على طرائق البدو العرب في الحكم وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة •

ففي أثناء فترات الحكم العربي التي سبقت هذه التجربة الجديدة اعتمد الامير البدوي على رجال عشيرته بشكل رئيسي وتأثر بهم، لذلك كانت دولته دولة بدوية، ولقد بقيت هكذا دونما تغيير لأن فترة الحكم المرداسي مثلها مثل الفترة الحمدانية التي سبقتها كانت متقطعة لم يتج فيها السبيل، ولم تقم بها الفرصة، لاحدا ثاي تغيير مؤثر ولقد كان شيوخ العشيرة في الفترة البدوية العربية المرداسية هم الشخصيات البارزة في الدولة، وشغلت هذه الشخصيات ادوارا سياسية هامة في حياة الامارة وطبعوها بطابعهم وعاداتهم، ولقد فضل شيوخ القبائل مع اتباعهم عدم النظام، وآثروا الفوضى، وكان لهم اعتباراتهم ومقاييسهم الخاصة فيما يختص بمسألة الاخلاص السياسي، وذلك بأن تآرجحوا بين الفئات المتصارعة، واحبوا الفتنة وكرهوا الأمن والمركزية والاستقرار والديمومة، ولقد مكن هذا الوضع فئات كثيرة داخلية وخارجية من التجمع وانشاء المنظمات، ثم ممارسة النفوذ والمشاركة في تقرير الأمور، كما ان هذا قد ترك الباب دائما مفتوحا على مصراعيه أمام أي جماعة أجنبية لها بعض القوة والتنظيم حتى تتغلغل ثم تستلب بعد ذلك الحكم والسيادة لنفسها، كما فعل التركمان، ولقد مر بنا خبر هذا كله.

رغم ماتميزت به فترة الحكم العربي من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي لقد كانت هذه الفترة خصبة من الناحية الفكرية والحضارية، ففيها عاش المعري ونظم شعره وبشر بفلسفته ومبادئه الخاصة، وفيها وجد ابن سنان الخفاجي وابن أبي حصينة وابن حيوس وغيرهم من الشعراء العظام، ومع الحرية السياسية والفكرية وجدت ايضا الحرية الدينية حيث مارس الناس معتقداتهم دونما ملاحقة أو تذكيل.

ويعتمد كل حكم «أوتوقراطي» على قوات محترفة «أو شبه محترفة»، وهكذا لقد كان حكم آق سنقر وحكم غيره من التركمان في الشام حكما عسكريا، فأق سنقر كان أحد ضباط جيش السلطان

ملك شاه، ومثله كان يغني سغان صاحب انطاكية وبوزان صاحب الرها، فبعد ما عين السلطان ملك شاه آق سنقر حاكما على حلب ترك عنده قوة عسكرية مؤلفة من ٤٠٠٠ فارس، ثم لما كان حكم آق سنقر قد خلف الحكم البدوي العربي فان الفراغ الذي تركه شيوخ القبيلة قد ملأه ضباط الحامية العسكرية، وهكذا أصبح الضباط الشخصيات المرموقة في البلاد، وبذلك نشأت طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة الضباط، ولقد نمت هذه الطبقة، واضطرت قوتها وتطورت بسرعة مذهلة، حتى غدا الضباط رجال الجماعة الذين يملكون القدرة على إحداث التغيير السياسي وحتى غير السياسي ومع ظهور كل ضباط طموح، ظهر شيء جديد، لم يكن في الغالب أقل من اسرة حاكمة جديدة، ويكفي دليلا على هذا ان نتذكر ان زكي مؤسس الدولة الاتابكية ثم صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية كانا ضباطا.

ومن طبائع الحكم « الأوتوقراطي » الاستبداد المقرون بالأنهية والعظمة، وعلى هذا الاساس نجد ان جماعة الأحداث في حلب اخذوا يفقدون قوتهم وسيطرتهم التقليدية مع قيام التوسع السلجوقي وتوطد حكم آق سنقر في شمال بلاد الشام.

ولقد جاء عن المؤرخ الحلبي أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد العظيمي في حوادث سنة ثمانين وأربعمائة هـ (١٠٨٧ م) قوله: « فيها استقرت الرتبة بحلب للامير قسيم الدولة آق سنقر من قبل السلطان العادل أبي الفتح، وتوطدت له الأمور بها، وأقام الهيبة العظيمة التي لا يقدر عليها احد من السلاطين، وأظهر فيها من العدل والانصاف مع تلك الهيبة ما يطول شرحه وإقامة » الهيبة العظيمة لا يتم بدون قوات مسلحة، والاحتفاظ بالعساكر يكلف الكثير من الأموال، والأموال في العادة تأتي من جيوب المحكومين، وهذا بالتالي يعني ان الحكم السلجوقي الجديد قد جلب معه الى الشام زيادة في الأعباء المالية، وليتصور المرء حالة بلد عانى من التهديم والسلب والنهب سنين طويلة، ثم عندما استقرت فيه الأمور ابتلي

يحكم « اتوقراطي » عسكري مبتز، وبعد هذا كان عليه والحالة هذه ان يتصدى لغزو خارجي جديد !

جاء عن محمد بن عبد الملك الهمذاني، مؤرخ القرن الثاني عشر ميلادي، في كتابه "عنوان السير في محاسن اهل البدو والحضر" في ثنايا حديثه عن حكم آق سنقر قسيم الدولة في حلب قوله: « واستغلها - يعني مدينة حلب فقط - في كل يوم الف وخمسمائة دينار » . وفي سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وصل السلطان ملك شاه الى بغداد ، ووصل اليه اخوه تتش وقسيم الدولة آق سنقر وغيرهما من حكام الامبراطورية، وفي بغداد تم اجراء بعض الاحتفالات الكبيرة التي تخللها عرض للعساكر والمواكب، ولقد كان موكب آق سنقر قسيم الدولة من العظمة بمكان بحيث « لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه » (٤) .

من العادة ان يتصنع الحاكم « الاتوقراطي » التقوى ، ويتظاهر بالاهتمام بمصالح « رعيته » ومنافعهم ، ويحرص على ان يبدو مهتما بالامن ، كارها للظلم ، وان كل حركة من حركاته وسكناته فيها عدل وتقوى وصلاح ونزاهة نابعة من القلب ولها الكثير من الصفات القدسية الربانية، وعلى هذا يبدو كل حاكم « اتوقراطي » وعليه مظاهر التعقل والاعتدال، ولهذا يحارب كل تطرف، ويقف في وجه كل « النزعات والبدع الجديدة » مهما كان نوعها وهدفها، فالبدعة هرطقة وعليه ان يحارب كل هرطقة، ولقد مر معنا بأن آق سنقر « جدد في ايامه عمارة منارة حلب بالجامع » كما امر ببناء عدد من المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشاهد القديمة رغم ان هذه القديمة كانت مشاهد شيعية وكان هو سنيا من اهدافه « إقامة الحدود الشرعية » وإعادة حكم السنة، ولكن لما كان غالبية اهل حلب شيعية اثنا عشرية فقد تقرب إليهم بترميم بعض اماكنهم المقدسة ذلك ان مقتضيات السياسة هي فوق كل اعتبار .

وعندما يظهر الحاكم « الاتوقراطي » الدين، فان ذلك يستلزمه تقريب المتدينين منه والاعتماد عليهم، ولقد كان الأمير البدوي

العربي يقرب الناس إليه لابتداعهم ولتفوقهم في فن من الفنون، لا لتقواهم وتدينهم، لذلك كانت حاشية الأمير المرداسي ومن قبله حاشية الأمير الحمداني فيها من الناس كل نموذج مما اعطاها صفة الحياة المتدفقة والشمول والحضارة المبدعة، لكن عندما أخذ الحاكم المطلق يقرب المتدينين إليه اضطر الى إضفاء صفة محددة على الدولة، وهذه الصفة غالبا لم تتعد التزمت والجمود، ثم إن في عملية تقريب فئة في العادة فيه إضرار بالفئات الأخرى، ولقد كان لذلك نتائج غير المحمودة على الحضارة، ثم لم يكن لذلك نتائج حميدة حتى على الدين نفسه لأن العملية تمت حسب أهواء ومقتضيات السياسة، ومهما يكن الحال إن تقريب رجال الدين من الحاكم قد خلق تدريجيا طبقة جديدة في المجتمع، وفي الاسلام، ألا وهي طبقة « الكهنوت » وهذا أمر جديد وخطير في تاريخ الاسلام، لطلما حرص هذا الدين منذ بدايته على تجذبه، ولكن الذي حدث أن طبقة من رجال الدين المحترفين قد وجدت وتطورت، وأصبح لها مكانتها ونفوذها وسياستها ومصالحها الخاصة، حتى أتى وقت أصبحت هذه الطبقة تضم فيه عددا من الأسر يرث فيها الولد وظيفة أبيه ومنصبه، مثلما كان الاقطاعي وسليل الأسر النبيلة يرث ويورث، وفي غالب الأحيان قامت هذه الطبقة بإعطاء تفسيرات للدين تتماشى ومصالحها ومنافعها، ولقد جمد هذا الدين، وخلق فراغا غالبا ما استغل من قبل أصحاب الأهواء، ونادرا من قبل ثوار حقيقيين أرادوا أن يرجعوا للاسلام روحه وحيويته وأهدافه الحقة .



في تاريخ بلاد الشام كان هناك دائما تنافس، أو بالحري صراع من أجل السيادة بين الشمال والجنوب، ولقد مثلت دمشق - منذ القرن السابع م - الجنوب كما مثلت حلب الشمال في هذا الصراع، ولقد كانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية لكن غالبا ماكانت سياسية حيث حاول حكام دمشق من طرفهم وحكام حلب من الطرف الآخر مد سيطرتهم كليا

على الشام ،ومما يدهش أن الشام نادرا ما عرف الوحدة السياسية لفترة طويلة ، بل تعود على التمزق والدويلات ، وتبعاً لهذه القاعدة « المؤسفة » حدث صراع بين تتش وآق سنقر ، وسنجد تتش ينتصر على آق سنقر ويقتله ، ومن ثم يوحد شمال الشام مع جنوبه ، لكن تتش لن يلبث طويلاً حتى يقتل فيرثه في حلب ابنه الأكبر رضوان وفي دمشق ولده الآخر دقاق ، ومن جديد يبدأ الصراع بين دمشق وحلب ، وفي غمرة الصراع هذا تصل الحملة الصليبية الأولى إلى الشام .

لقد جهد تتش منذ أن أصبح حاكم دمشق في العمل على مد سلطانه على بلدان الشام ومدينه خاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للخلافة الفاطمية أو تحكم من قبلها مباشرة ، ويروي سبط ابن الجوزي بأن تتش طلب في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م من أخيه السلطان ملك شاه أن يمدّه بما يمكنه من طرد الفاطميين من الشام واحتلال بلدان الساحل الشامي واخضاعها للحكم الساجوقي وبأن السلطان استجاب لنداء تتش هذا فأوعز إلى قسيم الدولة آق سنقر والي حلب ، وإلى بوزان صاحب الرها بأن يقدموا إلى تتش كل ما كان يحتاجه من مساعدات (٥) .

ويبدو أنه لم تنفذ أوامر السلطان هذه ، فلم يذهب بوزان ولا آق سنقر إلى مساعدة تتش ، كما أن تتش لم يقيم بأي عمل عسكري ملحوظ ضد بلدان الساحل ، لكن جيشاً فاطمياً وصل في سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م إلى الساحل الشامي وتمكن من أخذ صيدا وصور وجبيل وعكا ، ثم قام بحصار بعلبك ، وأثناء الحصار هذا وصل إلى المعسكر الفاطمي خلف بن ملاعب صاحب حمص وأفامية حيث قابل قائد القوات الفاطمية واعترف له رسمياً بسلطان الخليفة الفاطمي وسيادته عليه ، ولقد استولت الحملة الفاطمية أثناء وجودها في الشام على بعض أراضي تتش (٦) ونتيجة لهذا كرر تتش ندائه لطلب المساعدة ، وهنا أمر السلطان ولاته في الشام بالتحرك لمساعدة تتش ، وأن يتحدوا معه للقيام بعمل تاديبي ضد خلف بن ملاعب

صاحب حمص، ولكي يقوموا بمحاولة للاستيلاء على جميع املاك الفاطميين في الشام.

ويبدو ان السلطان ملك شاه قد عهد الى تتش بقيادة القوات المتجمعة، كما يبدو ان آق سنقر وبوزان قد قبلا بذلك مكرهين، فهما لم يرغبيا بقيادة تتش لأسباب شخصية، ذلك ان كل ماكان سيربح كان سيكون مآله الى تتش، وعدم رغبتهما هذه سببت نجاحا جزئيا لخطط تتش، ولقد كانت اسباب القيام بالعمل التاديبي ضد خلف بن ملاعب ليس فقط لاعتزافه بالخليفة الفاطمي كسيد له وإنما بسبب سلوكه العام والشكاوى التي رفعها اهل الشام الى السلطان ضده، ذلك انه كان « جبارا ظالما، يقطع الطريق، ويخيف السبيل ».

في سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م اجتمعت قوات بوزان، وآق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وتتش على حمص، وسبقهم بوزان، فلم يمكن خلف بن ملاعب من الخروج من حمص. فاقترحوا حمص وسيروا خلف بن ملاعب في قفص حديد الى السلطان ملك شاه ولقد طلب كل واحد من الامراء حمص لنفسه. فكتبوا جميعا الى السلطان ، فانعم بها على اخيه تاج الدولة .

ليس من الواضح مما جاء في روايات المؤرخين ما هي كانت الخطوة الثانية التي قام بها تتش وبقية الحكام، فلقد جاء في هذه الروايات بان مدينة طرابلس قد حوصرت من قبل الامراء الاربعة في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م، وان افامية قد تم الاستيلاء عليها في العام نفسه من قبل آق سنقر قسيم الدولة ، ونحن لانعرف فيما اذا كانت القوات السلجوقية قد تابعت سيرها نحو طرابلس بعد ان استولت على حمص ام ان كل قائد من القادة الاربعة عاد الى ولايته ثم اتحد في العام التالي مع الباقيين للزحف ضد طرابلس ومهما كان الحال فانه من المرجح انهم زحفوا على طرابلس مباشرة بعد الاستيلاء على حمص.

يبدو ان منح حمص لتتش قد اغضب آق سنقر، لذلك عندما ذهب

مع تتش للاستيلاء على طرابلس كان في قرارة نفسه يعمل للابقاء على طرابلس مستقلة ولنع تتش من الاستيلاء عليها ومن ثم ضمها الى املاكه، وفي طرابلس لقد كان ابن عمار قاضي المدينة وحاكمها قد اعد عدته للدفاع عن طرابلس، وأول ما قام به هو انه اختج ضد الحصار وابرز وثائق موقعة من قبل السلطان ملك شاه فيها يعترف له بسلطانه على طرابلس. ويبدو انه كان على بينة بما كان بين تتش واق سنقر من التحاسد والتباغض ، لذلك اتصل سرا بأق سنقر قسيم الدولة وعرض عليه مبلغ ٣٠٠٠ دينار إن هو ساعده في وقف حصار طرابلس، وهنا أخبر آق سنقر تتش بأن الوثائق التي ابرزها ابن عمار هي صحيحة وانهم على هذا بحصارهم لطرابلس يخالفون اوامر السلطان ملك شاه .

ووقع جدال بين تتش واق سنقر قسيم الدولة تطور الى خصام ، قام على إثره آق سنقر بسحب قواته والتوجه بها نحو حلب . وتخلي بوران ايضا عن تتش وانسحب مع قواته ، وهنا وجد تتش نفسه لا يملك القدرة على متابعة حصاره لطرابلس لذلك جمع هو ايضا قواته وعاد خائبا الى دمشق (٧) .

وعلى طريقه الى حلب، قام آق سنقر قسيم الدولة - كما يبدو - بالاستيلاء على افامية التي كانت جزءا من املاك خلف بن ملاعب . وبعد ان استولى عليها لم يحتفظ بها لنفسه بل سلمها الى نصر بن علي الأمير المنقذي لشيرز . وهذا يوحي بأن العلاقات بين اق سنقر قسيم الدولة واسرة آل منقذ كانت طيبة، وفي الواقع لم تكن العلاقات دائما طيبة بينهما ففي سنة ١٠٨٨ م سبق لآق سنقر ان قام بحملة ضد شيرز وحاصرها محاولا الاستيلاء عليها (٨) وعلى كل حال يبدو ان منح آق سنقر قسيم الدولة افامية للحاكم المنقذي لم يكن بدافع حب وطيب علاقات معه بل بسبب سوء علاقاته مع تتش . ففي استيلائه على افامية كان يحرم تتش من اخذها وهكذا يبعده عن حدود حلب، ولكن لما كان يقدر انه لن يستطيع الاحتفاظ بها، لذلك منحها للحاكم المنقذي، وبذلك ابقى تتش محروما منها وبالوقت نفسه زاد في قوة الامارة المنقذية التي وقعت بين اراضي تتش

وأراضي حلب وكانت بإمكانها أن تقوم بدور حاجز بين شمالي بلاد الشام وبين جنوبه ذلك إن لم يقف حكامها إلى جانب آق سنقر في الصراع الذي لا بد أنه واقع بينه وبين تتش*.

في هذه الأثناء قام السلطان ملك شاه باستدعاء جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة إليه، ففي ٢٨ رمضان ٤٨٤ هـ / ١٣ تشرين ثاني ١٠٩١ م كان ملك شاه قد وصل إلى بغداد حيث بقي فيها عدة أشهر يحتفل ويستعرض قواته ويستقبل ولاته ويبحث معهم مشاكل مناطقهم وقضاياها، وفي بلاط ملك شاه تلاقى تتش مع قسيم الدولة في حضرة السلطان، وقام تتش برفع شكواه ضد آق سنقر وقال: « كان من الأمر كذا وكذا، فقال له قسيم الدولة: تكذب، فقال السلطان: تقول لأخي كذا! قال: نعم، يطلع الله في غيبه ما يريدك لك، ويطلع في عيني ما يريدك لك »، وقنع السلطان بحجج آق سنقر وحكم له على أخيه تتش*.

لقد روى هذا كل من المؤرخين علي بن مرشد بن مذقذ، وابن الأثير، وسيبط ابن الجوزي، لكن سيبط ابن الجوزي قام بعد أن روى هذا الخبر بالتعليق عليه بقوله: « وهذا بعيد، فإن السلطان وصل حلب ولم يلتقيه تتش لأنه كان مستوحشا منه »، ولقد روى كل من العماد الأصفهاني وابن واصل الحموي خبر وصول السلطان ملك شاه إلى بغداد مع احتفالاته ومجيء آق سنقر وبوزان إليه لكن لم يذكر اسم تتش بين من جاء إلى بغداد، ولم يتعرض العماد لمسألة الخلاف بين تتش وآق سنقر، لكنه وابن واصل مثلهما مثل بقية المؤرخين ذكرا بأن السلطان ملك شاه قد عهد إلى أخيه تتش بالعمل على الاستيلاء على أملاك الخلافة الفاطمية في الشام* ومن أجل هذا « أمر مملوكيه بزان صاحب الرها وآق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض ويساعدها على أداء هذا المفترض »، ولقد مر معنا خبر احتلال حمص وكيف أن السلطان ملك شاه قد « أنعم بها على أخيه تاج الدولة »*.

إن في تعيين تتش قائدا للقوات السلجوقية المهاجمة لحمص

ومنحه بعد هذا حكم هذه المدينة إشارة توحى بأن تتشركان قد توصل ، بعد تركه لحلب وتجنبيه الالتقاء بأخيه، إلى التصالح مع السلطان ملك شاه، وإذا كان هذا قد وقع فعلا وتم حدوثه فليس هناك سبب يحول بيننا وبين الاعتقاد بأن تتش قد سافر فعلا الى بغداد، وعرض قضية خلافه مع آق سنقر على أخيه السلطان، وخسر هذه القضية نتيجة لاتهام آق سنقر له بالكذب، ثم لفضحه نواياه السيئة وخططه تجاه السلطان.

وعندما أراد تتش العودة الى دمشق اجبر على ترك أحد اولاده رهينة عند السلطان، ولقد ملأ هذا قلب تتش حقدًا على آق سنقر، لذلك سجنده في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م يقوم بقتل آق سنقر بيديه صبرا، وسنأتي على بحث هذا بالتفصيل، والمهم أن نذكر هنا أن آق سنقر قد ترك بغداد أيضا وعاد الى حلب لكن بمكانة اعلى ومركز اقوى واثبت(٩).

لم تكن قضية الصراع بين تتش وآق سنقر هي القضية الوحيدة التي عاشها البلاط السلجوقي للسلطان ملك شاه أثناء وجوده في بغداد ثم بعد تحرّكه منها، لقد كان سيد الامبراطورية السلجوقية الفعلي زمن ملك شاه وزيره نظام الملك، وكان ملك شاه يريد الخلاص من نظام الملك للانفراد بالسلطة لوحده ، كما أراد ملك شاه في ذات الوقت إخراج الخليفة العباسي من بغداد إلى مكة أو المدينة ، وتآمرت اطراف التنازع هذه ضد بعضها بعضا، وسقط الوزير نظام الملك أولا ، ثم لحقه بعد فترة وجيزة مسموما السلطان ملك شاه في ٦ شوال ٤٨٥ هـ / ٢٩ تشرين الثاني ١٠٩٢ م، وأخيرا لم تطل أيام الخليفة المقتدي بعد ملك شاه حيث توفي هو الآخر في سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ « فجأة وعمره ثمان وثلاثون سنة وتسعة أشهر ».

عندما مات ملك شاه كان عمره « ثمان وثلاثون سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرون يوما » وقد خلف عددا من الاولاد ما من واحد منهم كان في عمر يمكنه اعتلاء عرش السلطنة الشاغر، وقام صراع

بين السلاجقة من أجل خلافة ملك شاه واحتضنت كل فئة وحزب أحد الصبية وجهدت - باسمه - من أجل السيطرة على الامبراطورية (١٠) .

ولقد اتخذ آق سنقر قسيم الدولة وبوزان صاحب الرها وحران لنفسيهما موقفاً موحداً ، وتآرجحاً بين الفئات السلجوقية المتصارعة حتى واجها الموت نتيجة لحادث واحد، ويروي ابن العديم أن آق سنقر - وطبعاً معه بوزان - قد اعترف أولاً بسلطنة محمود الابن الأصغر لملك شاه (١١) لكنه لم يلبث أن بدل اعترافه وتحول بولائه .

عندما أخبر تتش بوفاة أخيه السلطان ملك شاه أعلن نفسه خليفة له وسلطاناً للامبراطورية السلجوقية ، وحتى ينال السلطنة فعلاً ويعترف به الجميع ، ولكي يمتن مركزه قام تتش بتجنيد جيش كبير .

وفي حلب لاحظ آق سنقر قسيم الدولة مدى خطورة تحركات تتش هذه، وفي الوقت نفسه علم بأن أولاد ملك شاه يحاربون بعضهم بعضاً من أجل خلافة أبيهم وليس هناك ما يشير بشكل قاطع إلى رجحان كفة فئة على أخرى، وفي هذه الظروف ومن زاوية إدراكه أنه لا يملك القوة الكافية لمقاومة تتش أو التصدي له قام آق سنقر مكرهاً بالاعتراف بتتش وأعلن عن استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه، وفي سنة ١٠٩٣ م - ربما في شباط - مر تتش بأراضي حلب متوجهاً شرقاً يريد خراسان، وفي الطريق التحق به آق سنقر قسيم الدولة ويغي سغان وبوزان ، وأثناء تحركهم هذا استولوا على الرحبة ونصيبين وأكثر مناطق الجزيرة، وقرب الموصل خاضوا معركة كبرى اتوا بها نهائياً على قوة عقيل ثم على الدولة المروانية .

عقب وفاة مسلم بن قريش العقيلي « استولى على الموصل ابراهيم بن قريش أخو مسلم » ، وفي سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م استدعى السلطان ملك شاه ابراهيم إليه « ليحاسبه، فلما حضر عنده اعتقله، وأنفذ فخر الدولة ابن جهير إلى البلاد فملك الموصل وغيرها » . وبقي ابراهيم مع السلطان ملك شاه ، وسار معه إلى

سمرقند، وعاد الى بغداد، فلما مات ملك شاه أطلقته تركان خاتون إحدى أرامل ملك شاه من الاعتقال ، ففسار الى الموصل .

وأثناء حياته كان ملك شاه قد أقطع عمته صفية مدينة بلد، وكانت صفية هذه زوجة شرف الدولة مسلم بن قريش ولها منه ابنه علي، وكانت قد تزوجت بعد شرف الدولة بأخيه ابراهيم ، فلما مات ملك شاه قصدت الموصل ومعها ابنها علي واستطاعت أخذ الموصل، وهنا وصل إليها زوجها ابراهيم « فسلمت البلد إليه فأقام به فلما ملك تُتَشَرُّصِيبِينَ أرسل إليه يأمره أن يخطب له بالسلطنة، فامتنع ابراهيم من ذلك ، ففسار تتش إلى «، فلما عرف ابراهيم « خبره جمع وحشد واستصرخ واستنجد « ثم تقدم نحو تتش « في ثلاثين ألفاً، وكان تتش في عشرة آلاف ، وكان أق سنقر على ميمنته وبوزان على ميسرته «، والتقى الجيشان في مكان يعرف بالمضيع على نهر الهرماس نهر مدينة نصيبين» واختلط الفريقان واشتد القتال ، وانكشفت المعركة عن قتل جماعة من الأتراك والعرب، وعاد كل فريق منهما الى مكانه ، فلما استقر بالعرب المنزل، عاد عسكر تاج الدولة إليهم وهم غارون، وحمل عليهم وهم غافلون، فانهزمت العرب وأخذهم السيف، فقتل منهم العدد الكثير، والأكثر من الرجالة المقيمين في المخيم، وقتل الأمير ابراهيم بن قريش وجماعة من الأمراء والمقدمين من بني عقيل وغيرهم، وقيل أن تقدير القتلى من الفريقين عشرة آلاف رجل، واستولى النهب والسلب والسبي على من وجد في المخيم ، وامتلأت الأيدي من الغنائم، والسواد والمواشي والكراع بحيث بيع الجمل بدينار واحد، والمائة شاة بدينار واحد .

ولم يشاهد أبشع من هذه الواقعة ، ولا أشنع منها في هذا الزمان ، وقتل بعض نسوان العرب أنفسهن أشفاقاً من الهزيمة والسبي ، ولما عادوا بالأسرى والسبي وحصلوا بشطاطىء الفرات القى جماعة من الأسرى أنفسهم في الفرات فهلكوا « .

لقد حدثت هذه المعركة سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، وكان ضمن قوات ابراهيم بن قريش بعض القوات الكردية ، فلقد قتل مع

ابراهيم حسين بن نصر الدولة بن مروان ، لذلك ارتأى تتش أن يتابع احتلال جميع مناطق الجزيرة وأن يقوم بتصفية الدولة المروانية قبل أن ينحدر شرقا ، وعلى هذا تحرك نحو « أمد وملكها ، وأقام أياما قلائل ، وسار إلى أن وصل إلى ميافارقين » فتسلمها هي الأخرى بالأمان وبذلك أتى على الدولة المروانية وانهاها من الوجود .

إن الانتصارات التي حققها تتش قد حسنت من وضعه وقوت مركزه ، لذلك كتب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه أن يأمر بأن يخطب له بالسلطنة على مناطق بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، ويتوعده إن لم يستجب لطلبه ، فلم يعبأ الخليفة بتهديداته ولم يعر طلبه اهتماما كبيرا بل كتب إليه « إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التي بأصبعها ، وتكون صاحب المشرق وخراسان ، ولم يبق من أولاد أخيك من يخالفك ، أما في هذه الحال فلا سبيل إلى ما التمسته ، فلا تعد حد العبيد ، وليكن خطابك ضراعة لا تحكما ، وسؤالا لا تجبرا ، وإن أبيت قاتلناك ورديناك ، وأتاك من الله ما لا قبل لك فيه » .

وإمام هذا الموقف قرر تتش التوجه مباشرة إلى خراسان وعدم الذهاب إلى بغداد ، وفي خراسان كانت ملامح الصراع بين أبناء ملك شاه قد توضحت بأن رجحت الكفة لصالح بركياروق الابن الكبير ، وعندما وصل تتش إلى مدينة تبريز فصل عنه قسيم الدولة صاحب حلب ، وعماد الدولة بوزان صاحب الرها مغاضبين ، وقصدا ناحية السلطان بركياروق بن ملك شاه ، مخالفين له ، وعاصيين عليه . والتحقا ببركياروق عند مدينة الري - قرب مدينة طهران الحالية - وقدا له المساعدات ، فقوي مركزه بهما ، وكانت فلول قبيلة عقيل قد التحقت أيضا بمعسكر بركياروق .

وضعت بهذا صفوف تتش واضطر أمام الحال الجديد أن لا يتابع سيره نحو الري للقتال ضد بركياروق بل عاد أدراجه نحو ديار بكر ، وحرص أن سنقر قسيم الدولة وبوزان بركياروق ضد تتش وحذراه

من أن يهمل أمره ، وطلبا منه أن يعاجله» قبل إعضال خطبه وتمكنه من الغلبة على السلطنة ، والاستيلاء على أعمال المملكة، وأشارا عليه بالسير في هذا الوقت «وطلبا منه أن يسير معهما، وفعلا صاحبهما إلى مدينة الرحبة ، ويبدو أن تتش قد كان في الرحبة عندما توجهوا نحوها، لكنه عندما علم بزحفهم إليها تركها وتوجه صاعدا على طرف الفرات قاصدا بلد انطاكية، وتوقف بركياروق في الرحبة، وفيها قام بعقد تحالف بين أق سنقر قسيم الدولة وبوزان من جهة وبين علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة أخرى، وكان علي هذا قد خلف عمه إبراهيم بن قريش في زعامة قبيلة - أو بالحري ما بقي من قبيلة - عقيل * وتوجه بوزان إلى الرها ، وسار قسيم الدولة إلى حلب وبرفقتة بعضا من عساكر بركياروق ومن أفراد قبيلة عقيل وغيرها من القبائل، ولقد وصل أق سنقر إلى حلب في تشرين الثاني من العام نفسه - ١٠٩٣ م - (١٢) .

وانتهى خبر وصول أق سنقر إلى حلب إلى تتش، وورد عليه نبا « بأنكفاء السلطان - بركياروق - من الرحبة إلى بغداد، وأن عزمه أن يشتو بها، وأقام تاج الدولة بأنطاكية مدة، فقلت الأقوات وارتفعت الأسعار وخطوب في العودة إلى الشام فلم يفعل، وعاد إلى دمشق آخر ذي الحجة من السنة (٤٨٦ هـ / أو آخر كانون ثاني ١٠٩٤ م) وفي جملة الأمير وثاب بن محمود بن صالح، وبنو كامل، وجماعة من العرب لم يجسروا على الإقامة بالشام خوفا من قسيم الدولة »، وفي دمشق أخذ تتش يعمل من جديد على تقوية جيشه بتجنيد قوات جديدة، وعلى إعداد ما يلزم من العدة كي ينال السلطنة، وفي حلب قام أق سنقر بدوره بالأعداد للتصدي لتتش ومنعه من مغادرة بلاد الشام إن لم يكن لانتزاع دمشق منه، وكاتب أق سنقر السلطان بركياروق وطلب منه المساعدة، كما استنجد بمن جاوره من حكام السلاجقة في مدن الجزيرة « فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل، وبزان صاحب الرها، ويوسف بن أبوق صاحب الرحبة في الفي فارس وخمسائة فارس » *

وقام آق سنقر أيضا بتجنيد قوات اضافية من قبيلة كلاب، وجدير بالملاحظة أن معظم قوات تُدش التي جندها هو أيضا في جيشه كانت من بين القبائل البدوية العربية ومن جملة ذلك قبيلة كلاب التي يبدو أن أفراد الأسرة المرداسية كانوا قد فقدوا قسما كبيرا من سلطانهم عليها بعد سقوط اسرتهم في حلب، ففي أيام آق سنقر التي نحن بصدد الحديث عنها كان أبرز أمراء قبيلة كلاب هو شبل بن جامع وكانت له السيادة على الجزء الأكبر من القبيلة ولقد قطن هذا الجزء في المنطقة الجنوبية الغربية لحلب، أما ما تبقى من القبيلة فقد كان تحت إمرة الأمير المرداسي وثاب بن محمود الذي كان على علاقات طيبة مع تدش، لذا انخرط وأتباعه تحت لوائه.

ولم تكن العلاقات بشكل عام جيدة بين آق سنقر وقبيلة كلاب، لكنه - أي آق سنقر - كان مجبرا على تجنيد الكلابيين في جيشه، لأن ما كان لديه من القوات التركية، لم يكن كافيا، ثم إن مساجاه من مساعدات، ونجدات، كان دون الحاجة، ويبدو أن قبيلة كلاب كانت المصدر الأفضل، إن لم يكن الفريد، في شمالي بلاد الشام للتجنيد، ولقد كان آق سنقر على بينة ومعرفة تامة بميول الكلابيين ومشاعرهم غير الودية تجاهه وكان لهذا دائما يشك بهم، ويرتاب بتصرفاتهم، واخلاصهم له.

« وفي شهر ربيع الأول من سنة سبع وثمانين وأربعمائة (آذار - نيسان ١٠٩٤ م) خرج تاج الدولة تدش من دمشق ومعه خلق عظيم من العرب، ولقي يغى سغان بعسكر انطاكية بالقرب من حماه، وأقاموا هناك أياما، وزوج ولده رضوان من ابنة يغى سغان وسيره عائدا الى دمشق، وسار تاج الدولة بعساكره «، فتهيأ آق سنقر للقائه، والخروج إليه، واستدعى منجما لياخذ له الطالع، فحضر عنده واختار له وقتا، وقال: تخرج الساعة، فركب ومعه النجدة التي وصلته، وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل، وكان اطلاقهما من الاعتقال، ومحمد بن زائدة، وجماعة من أحداث حلب، والديلم والخراسانية، في أحسن زي،

واكمل عدة، وقيل إنه قدر عسكره بعشرين ألف فارس، وقيل كان
يزيد عن ستة آلاف، وقصد تاج الدولة يوم السبت التاسع من
جمادى الأولى من السنة (٤٧٨ هـ / ٢٦ مايس ١٠٩٤ م) *

وقطع آق سنقر سواقي نهر سبعين (على بعد ستة فراسخ من
حلب) قاصدا عسكر تتش (وكانت عساكر كربوقا وبوزان لم تتمكن
من قطع بعض السواقي) فاقاموا على حالهم، وكان أول من برز
للحرب آق سنقر، فالتقى الفريقان *

ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من البداية العرب، فنقلهم من
الميمنة الى الميسرة في وقت المصاف، ثم نقلهم الى القلب، فلم يغنوا
شيئا، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت، وانهزمت
البداة العرب وعسكر كربوقا وبوزان، وكربوقا وبزان معهم الى حلب،
ووقع فيهم القتل، وثبت قسيم الدولة، فأسر وأكثر أصحابه *

وحمل الى تاج الدولة تتش فلما مثل بين يديه قال له: « لو ظفرت
بي ما كنت صانعا في ؟ قال: اقتلك، قال: فاني أحكم عليك بحكمك
في »، وقام تاج الدولة إليه « فضرب رقبتيه بيده، وقطع
راسه »، وأصبح تاج الدولة يوم الأحد على حلب ومعه رأس الأمير
قسيم الدولة «، وكان كربوقا وبوزان قد عولا على الاعتصام بحلب
وانتظار وصول نجدة من السلطان بركياروق » لأن كتاب الطائر
وصل الى حلب يخبر بوصول النجدة الى الموصل، وقررا مع الاحداث
ذلك «، ووصل تتش الى حلب والأمور لم تقرر بعد بشكل نهائي،
وسببت سرعة وصول تتش الى اسوار حلب ارتباكاً بين صفوف
اهاليها وأحداثها وتركمانها، وفي ساعة الحيرة هذه وثب قوم من
الأحداث ممن لايعرف ولايذكر ففتحوا باب أنطاكية ونادوا بشعار
تاج الدولة، فدخل وثاب بن محمود بن صالح « في مقدمة أصحاب
تاج الدولة الى حلب، وسكن البلد، فنزل الوالي بقلعة الشريف
وسلمها الى تاج الدولة، فدخلها وبات فيها، فراسله نوح والي القلعة
الكبيرة وسلمها إليه بعد أن توثق منه، وطلع تاج الدولة إليها في
الحادي عشر من جمادى الأولى من السنة *

وقبض تاج الدولة على بوزان فحضر رقبته صبرا، واخذ كربوقا واعتقله بدمض، واقطع الشام لعسكره، واقطع معرة النعمان واللاذقية ليغي سغان * »

« ورحل السلطان تاج الدولة عن حلب في العسكر الى ناحية الفرات، وقطعه وقصد حران فاستعادها، وكذلك سروج والرها، وقصد ديار بكر، وعدل عن طريق السلطان بركياروق لأنه كان نازلا بارض الموصل طالبا لخاتون زوج السلطان ملك شاه والد أخيه محمود، وكانت مستولية على أصفهان وجميع الأموال، لمكاتبات ومراسلات ترددت بينهما في معنى الوصلة بينها وبينه - أي تتش - واستقر الملك له ولها، وكانت قد منعت السلطان بركياروق التصرف في تلك الأعمال والتقود فيها * »

وفي هذا الوقت حدث زلازل في يوم وليلة دفعات لم يسمع بمثلهما في كل زلزلة منها تقيم وتطول بخلاف ما جرت بمثله العادة * ورحل تاج الدولة عقيب ذلك، ولم يتمكن من الاتمام على ستمته، وعرفت خاتون الخبر فخرجت من أصفهان في عساكرها للقاء تاج الدولة، فعرضلها في طريقها مرض حاد، فتوفيت، وتفرق عساكرها الى جهة السلطان بركياروق والى غيره * »

وحين عرف بركياروق ذاك سار في الحال الى أصفهان فدخلها وملكها، ووصل من عسكر خاتون الى تاج الدولة خلق كثير، وكذلك من عسكر بركياروق، فتضاعفت عدته، وقويت شوكته، ودعي له على منابر بغداد، ووصل الى همذان، وكاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فيمن بقي من الأجناد في الشام، فسار الى حلب، ومن حلب الى العراق، ومعه الأمير نجم الدين أيل غازي بن ارتق، والأمير وثاب بن محمود بن صالح وجماعة من أمراء العرب، وأتراك حلب القسيمية (نسبة الى قسيم الدولة آق سنقر)، وتوجه صوب بغداد على الرحبة * »

وبعث تتش يوسف بن أبق على رأس قوة نحو مدينة بغداد للاستيلاء عليها، أما هو فتوجه نحو أصفهان، وفي أصفهان كان

السلطان بركياروق مريضاً بعد إصابته بالجذري، لذلك سار تتش نحو الري، وراسل أمراء التركمان الذين كانوا في أصبهان يدعوهم إلى طاعته ويبذل لهم البذل الكثيرة» فأجابوه يعدونه بالانحياز إليه وهم ينتظرون ما يكون من بركياروق، فلما عوفي أرسلوا إلى تتش ليس بيننا غير السيف، وساروا مع بركياروق من أصبهان « نحو الري، وقبل أن يصلوها» أقبلت إليهم العساكر من كل مكان حتى صاروا في ثلاثين ألفاً، فالتقوا - مع جيش تتش - بموضع قريب من الري، فانهزم عسكر تتش، وثبت هو فقتل، قتله - غيلة - بعض أصحاب آق سنقر صاحب حلب - أو بوزان صاحب الرها - أخذاً بثأر صاحبه (١٣) .

وكان هذا في شهر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (شباط ١٠٩٥ م) .

إن مقتل كل من آق سنقر قسيم الدولة، وبوزان، ثم تتش قد ختم مرحلة من مراحل تاريخ بلاد الشام والجزيرة تحت الحكم السلجوقي، وفي الواقع إنه قد ختم حقبة متميزة من تاريخ الشام والجزيرة وأبدأ حقبة متميزة جديدة هي حقبة بداية الحروب الصليبية ونشاط الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي أسسها حسن الصباح (١٤) ولقد كان تتش وبوزان وآق سنقر ورجال طبقتهم تركماناً قاموا بالحقاق بلاد الشام والجزيرة بالامبراطورية السلجوقية ولقد كانت مواطن ولادتهم خارج الشام والجزيرة وجاءوا هم غزاة إلى الشام والجزيرة مواكبين للهجرة التركمانية الكبرى.

وبموتهم انتهت طبقتهم ومعها ختمت المرحلة التي عاشوها ، وبدأت بعدها مرحلة جديدة،حكام الشام والجزيرة فيها من السلاجقة ، لكن كلهم ولد في إحدى مدن أو بلدان الشام والجزيرة وفيها نشأ ، وفي الوقت الذي تبدأ به مرحلة الحكم السلاجقة» الشاميين والجزريين « هذه تعرضت الشام لهجرة بشرية وغزو جديدين ، المهاجرون الغزاة الجدد كانوا مثلهم مثل التركمان من أصول غير شرقية عربية ،إنما وإن اختلفوا عن التركمان في المعتقد والوطن

الأم فقد وجدت أوجه تشابه كثيرة تجمعهم بالتركمان ، يقول المؤلف المجهول الذي رافق الحملة الصليبية الأولى وكتب عنها: « لقد كان حقاً ما قيل من أنه لايجوز لأحد ما أن يسمى بالفارس إن كان من غير الفرنجة أو الترك (١٥) .

ولن يتمكن - كما سنرى - السلاجقة « الشاميين الجزريين » من صد الصليبيين ، وسيمر وقت تزول به « بالموت » طبقة الحكام السلاجقة هذه ويخلق جيل جديد من الحكام السلاجقة والناس فيه حقنت روح جديدة، وبذفس الوقت تزول أيضاً طبقة قادة الحملة الصليبية الأولى ويجيء إلى الوجود جيل من الصليبيين « الشاميين الجزريين » له صفات وملامح فيها الكثير من الجدة ، وهنا يتمكن الجيل المسلم الجديد البدء بكسب الجولة ، وتأخذ حركة التحرير والاسترداد الإسلامية صفة الفعالية والتأثير .

ستكون هذه المراحل مما سيدرس في مجلد يلي هذا ، وسأكتفي هنا بدراسة فترة حكم كل من رضوان بن تتش وأخيه دقاق في الشام ، لأن حكمهما يشكل جسراً بين فترة ما قبل الحروب الصليبية والمراحل الأولى لهذه الحروب !

بعد أن استولى تتش على مدينة حلب عقب قتله لأق سنقر قسيم الدولة ، وقبل أن يغادر هذه المدينة متوجهاً شرقاً حيث لقي حتفه ، قام بإسناد أمور السلطة في حلب إلى أبي القاسم بن بديع وكان من أهالي مدينة حلب ، وقد أسند تتش إليه منصب وزارة حلب ، وكان حكم مدينة حلب بنفسها بيد رئيسها بركات بن فارس الذي عرف باسم المجن الفرعي ، وكان المجن الفوعي هذا هو مقدم أحداث حلب وصاحب الكلمة الأولى فيهم .

وكان تتش قبل أن يصل إلى حلب ويفتحها قد أعاد ولده الأكبر رضوان إلى دمشق ، وإلى رضوان أوصى بالأمور من بعده إن أصابه مكروه ، وكان رضوان آنذاك صبياً في الثالثة عشر من عمره ، ذلك أنه ولد في دمشق سنة خمس وسبعين وأربع مائة ، وفيها نشأ في حجر أبيه ، وكان أبوه قد زوج أمه إلى إحدى شخصيات تركمانه الكبار ،

وكان اسم هذه الشخصية حسين وعرف عادة باسم جناح الدولة ،
وأحيانا باسم باقي الدولة •

كان جناح الدولة أتابكا لرضوان بن تتش ، وكلمة أتابك تعني في الأصل الأمير الأب ، فهي كلمة مركبة من « أتا » ومعناها أب أو عم ، و« بك » وتعادل أمير أو مقدم أو سوى ذلك من الفاظ الزعامة ، فلقد كان من عادة السلاجقة كتركمان أن يطلقوا بعض زوجاتهم عقب انجاب أحدهن لغلّام ، وكانوا ينعمون بالمطلقة « كزوجة » على إحدى شخصيات دولتهم من التركمان ، والطلاق كان يحصل لأسباب دينية وسياسية ، دينية عدم سماح الشرع بالجمع بين أكثر من أربع زوجات حرائر ، وسياسية حيث كان الحاكم السلجوقي يجد نفسه راغبا أو مرغما على الزواج بأكثر من أربع فتيات إما للشهوة أو للمكانة السياسية والاجتماعية للفتاة أو للامرين معا ، وحين كان يتم تطليق إحدى الزوجات ومن ثم تزويجها كان الأمير السلجوقي يحقق بعض الغايات السياسية أيضا فهو يربط المنعم عليه « بالمطلقة » بالأسرة الحاكمة ثم هو يؤمن بنفس الوقت مربيا جيدا لولده مع حزب وقوة تحميه ، ومع مرور الايام ، وتقلب الدول ، تطور منصب « أتابك » وتمتع بصفات ومزايا أخرى غير التي ذكرت كما أدخل عليه الكثير من المزايا الجديدة ، ليس هذا المجال للحديث عنها بشكل مفصل .

لقد كانت مدينة حمص هي أقطاع جناح الدولة حسين ، ويبدو أن تتش كان قد أسند إليه أمور الاشراف على أعمال حلب ، وليس من المؤكد فيما اذا كان جناح الدولة قد كان برفقة تتش في خراسان عند مقتله أم أنه كان في مدينة حلب ، ومن الأرجح أنه كان في مدينة حلب ولم يكن برفقة تتش .

وعندما كان تتش في خراسان متوجها لحرب ابن أخيه بركياروق ، أرسل عند وصوله الى همذان كتابا الى ابنه رضوان « يستدعيه اليه من دمشق وأمره أن يحضر معه من تخلف بالشام من العسكر ، فامتثل أمر أبيه وخرج من دمشق بالعسكر متوجها الى

أبيه، ووصل الى عانة ،وقيل الى الأنبار، فبلغه قتل ابيه تتش ، فحط خيمه وسار مجدا عائدا، فوصل الى حلب وتسلمها من وزير ابيه ابي القاسم بن بديع في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة (١٠٩٥ م) وتولى حسين زوج امه تدبير ملكه » .

واخذت فلول قوات وعساكر تتش ومؤيديه تتوارد الى حلب ، وهنا اراد كل واحد من رجالات دولة تتش وحلفائه - وخاصة يغني سغان صاحب انطاكية ويوسف بن ابق وبعض اولاد ارتق - أن يتفرد بالتحكم برضوان وبالتالي السيطرة على ميراث تتش في الشام والجزيرة ، ولقد ابتغوا جميعا اعادة بلدان الجزيرة مع دمشق الى الحظيرة .

ولقد كان من بين فلول جيش تتش التي فاءت الى حلب دقاق الابن الثاني لتتش ، وخاف دقاق على نفسه من اخيه رضوان ، وكان نائب القلعة في دمشق يدعى ساوتكين ، واراد ساوتكين أن يحتفظ بسلطانه واستقلاله في دمشق ، لكنه كان يحتاج الى اصدقاء نوع من انواع الشرعية على حكمه ، لهذا راسل دقاق بن تتش ، فهرب المذكور سرا من حلب الى دمشق ، حيث دخلها ، واصبح حاكمها الشرعي ، وهكذا عاد التمزق السياسي مرة ثانية الى الشام ، واصبح الآن اعادة السيطرة على دمشق الشغل الشاغل لرضوان ، وله صرف الكثير من جهده ووقته وطاقات دولته . وكان لتتش ولدين آخرين ، وخشية أن يفعلوا فعلا يشابه ما صنعه اخوهما دقاق قام رضوان باعدامهما .

وقامت مفاوضات بين رضوان بن تتش والسلطان بركياروق ادت الى ان اطلق رضوان الاسرى الذين كان والده قد اخذهم في حربه مع اق سنقر ، وبالمقابل اطلق السلطان بركياروق سراح الاسرى الذين اخذهم في حربه مع تتش ، وكان من بين الذين كسبوا حريتهم طغتكين ، وطغتكين هذا الذي عرف باسم اتابك ظهير الدين كان من المعضباط تتش ، وقد حظي عنده بمكانة عالية نظرا لطاقاته ونشاطه ونبوغه» وسلم إليه ولده الملك شمس الملوك دقاق، واعتمد

عليه في تربيته وكفالاته « ، وتزوج طفتكين خاتون صفوة الملك أم دقاق، وهكذا أصبح أتابكا حسب ما جرت عليه العادة .

وعقب خلاصه من الأسر توجه عائدا الى دمشق فوصلها « في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م فتلقاه الملك شمس الدولة دقاق، وعسكره، وأرباب دولته، وبولغ في اكرامه واحترامه، ورد إليه النظر في الاسفهلارية، واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسة البيضة، واقتضت الحال فيما بينه وبين الملك وأمراء الدولة العمل على ساوتكين والايقاع به، وتمم عليه الأمر ، وقتل « .

ولما كان رضوان بن تتش « مانلا الى دمشق ، ومحبا لها، ومؤثرا للعودة اليها، ولا يختار عليها سواها لمعرفته بمحاسنها، وترعرعه فيها، فجمع وحشد، واستنجد بالأمير سكممان بن أرتق « ، وكان اقطاع سكممان سروج في الجزيرة، فسار سكممان نحو حلب وقطع الفرات، وفي طريقه لقيه يوسف بن أبق ففرض نفسه عليه، لكن عندما وصل حلب استطاع بمساعدة جناح الدولة حسين الخلاص من يوسف حيث ذهب إلى أنطاكية الى يغى سغان صاحبها .

واقطع رضوان سكممان بلدة معرة النعمان وأعمالها، ثم سار معه نحو دمشق، وكانت سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م قد دخلت ، وحاصر رضوان دمشق لكنه أخفق في أخذها نظرا لتدابير الدفاع الجيدة عنها، ولما وجد رضوان أنه لاجدوى في حصاره لها، توجه جنوبا فنهب أعمال حوران ، وهنا تركه سكممان حيث ذهب الى مدينة القدس وكانت اقطاعا لآخيه ايل غازي فتسلمها، وعاد رضوان الى حلب كي يجدد الاستعداد لحملة ثانية على دمشق (١٦) .

وعقب عودة رضوان الى حلب راسله يوسف بن أبق ، واستأذنه في المجيء الى حلب للدخول في خدمته فأذن له، ووصل يوسف الى حلب وسكنها، « ثم خاف رضوان وحسين منه، فتقدما الى بركات ابن فارس رئيس حلب المعروف بالمجن الفوعى بقتله، فهجم عليه وأصحابه فقتلوه، ونهبوا داره، وأخذوا رأسه وسيروه الى بزاعا ومنبج فتسلموها من أصحابه « . وبعد هذا خرج جناح الدولة حسين

ورضوان فأغاراً على بعض أعمال انطاكية التابعة ليغي سغان، واحتلّا تل باشر وشيخ الدير، ولقد اغضب هذا - مع مقتل يوسف ابن آبق - يغي سغان الذي أخذ يعد العدة للثأر.

ومرة ثانية توجه رضوان مع حسين وبصحبتهما عساكر حلب نحو دمشق، وهنا تحرك يغي سغان بسرعة نحو دمشق منجدا لدقاق « فضعت نفس رضوان عن دمشق، فسار الى البيت المقدس ، فتبعه دقاق وطفنكين ويغي سغان - وأقاموا متحاربين مدة - وأشرف عسكر رضوان على التلّاف، فهرب حسين على البرية واتبعه رضوان، ثم وصل سكمان أيضا على البرية الى حلب، ووصل دقاق وطفنكين الى ناحية حلب واستنجد رضوان بسليمان بن ايلغازي صاحب سميساط، فوصل الى حلب بعسكر كبير، واجتمع العسكران بقنسرين على نهر قويق، وتحاربا فهرب دقاق وطفنكين الى دمشق، ويغي سغان الى انطاكية ».

ولقد استغلت الخلافة الفاطمية في القاهرة امور واحداث النزاع هذه فأرسل امير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي حملة عسكرية استطاعت بعد جهد انتزاع القدس من الأسرة الأرتقية، ثم أكدت النفوذ الفاطمي على مناطق الساحل الشامى، مثل مدينة صور، ووطدته، وكان هذا سنة الحملة الثانية على دمشق ٤٨٩ - ٤٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٠٩٦ م ، ومن قبل في سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م بعيد وفاة السلطان ملك شاه، وأثناء انشغال تتش وأق سنقر في الصراع من أجل السلطنة، استغل بدر الجمالي والد الأفضل تلك الحالة فأرسل حملة عسكرية الى الساحل، واستطاعت تلك الحملة احتلال مدينة صور، وأعادتها الى حظيرة الخلافة الفاطمية.

واستغل اهالي افامية أيضا الصراع بين ولدي تتش، فثاروا بحاكمهم التركي الذي كان تتش قد خلفه فيها بعد انتزاعه لها من الأسرة المنقذية أثناء سعيه للسلطنة، واستطاع الفاميون الذين كان غالبيتهم اسماعيلية مستعلية من أتباع القاهرة طرد حاكمهم التركي

في سنة ٤٨٨ هـ ، وذهب وفد منهم الى القاهرة ، فرجعوا بخلف بن ملاعب ، الذي كان قد نجا من سجنه في خراسان ، رجعوا به واليا عليهم .

وإثناء فترة الصراع هذه استطاع كربوقا بعدما أطلق رضوان سراحه من السجن الذي كان تتش قد أودعه به عقب انتصاره على أق سنقر ، استطاع كربوقا تجنيد جيش من التركمان في الجزيرة ، وبوساطة هذا الجيش احتل حران ، ثم أخذ نصيبين من محمد بن مسلم بن قريش العقيلي ، ثم احتل مدينة بلد وغرق محمد بن مسلم ، وسار الى مدينة الموصل ، وكانت في حوزة علي بن مسلم بن قريش العقيلي ، فحاصرها حتى « عدت الأقوات بها ، وكل شيء حتى ما يوقدونه » فلما ضاق بصاحبها علي الأمر فارقه ، وسار الى الأمير صدقة بن مزيد - أمير بني أسد - بالحلة ، وتسلم كربوقا البلد بعد أن حصره تسعة أشهر « وبعد هذا ، وبعد أن وطد نفسه في الموصل أراد اتمام مد نفوذه على الجزيرة ، وكان حاكم جزيرة ابن عمر قد اعترف بسلطانته ، فسار الى بلدة الرحبة على الفرات فاحتلها وضمها الى مملكته الجديدة (١٧) .

إن اخفاق رضوان في أخذ دمشق للمرة الثانية لم ينه مطامعه في هذه المدينة ، كما لم يوقفها « تواصل الأخبار بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة » * ولقد قلق الناس في بلاد الشام وسواها لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لاشتعارها ، لكن رضوان كان ما يزعجه ، هو أن يبقى محروما من دمشق ، وكان أمر المحافظة على حكمه في حلب هو الذي يشغل باله ويقلقه . ويبدو أنه أراد أن يتخلص من جناح الدولة حسين وينفرد بحكم حلب ، « واستشعر حسين من رضوان ، وأحس بتغير نيته تجاهه ، فاضطر الى الهرب من حلب ليلا الى حمص ومعه زوجته أم رضوان ، وهنا عول على قصد مدينة حمص لانتزاعها من جناح الدولة حسين » ، ثم قصد مدينة دمشق لانتزاعها من أخيه دُقاق ، وراح رضوان يفتش عن حلفاء ، فكان أن التفت الى يغى سغان صاحب انطاكية فتصالح معه وتحالف ، ثم توجه بأنظاره نحو القاهرة ،

ووصلت إليه بعثة فاطمية أرسلها الأفضل أمير الجيوش ووزير مصر وصاحب الكلمة فيها، وكان مع البعثة بالاضافة الى الهدايا الكثيرة رسالة من الخليفة الفاطمي المستعلي وأخرى من الأفضل . وتم الاتفاق بين رضوان والبعثة الفاطمية على ان يقيم رضوان الدعوة في بلاده للخليفة المستعلي والأفضل بن بدر الجمالي . وان تقوم القاهرة بإرسال جيش يساعده لاسترداد حمص واحتلال دمشق .
وفعلا أمر رضوان باعلان الدعوة للفاطميين وتوجه جنوبا، وعند شيزر حدثت خلافات بين أمراء جيشه ، فلم يتابع سيره جنوبا بل عاد الى حلب، وبنفوس الوقت ضغط عليه من قبل أمراء التركمان للاقلاع عن الدعوة للفاطميين والعودة للطاعة العباسية ففعل، ولم تستمر الدعوة للفاطميين سوى أربع جمع ومن ثم قطعت ولم تعد ابدا بعد هذا (١٨) .

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة في توحيد جهودهم، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار العساكر، عساكر يغني سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م نهبوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، وفر يغني سغان، وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين، وأخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة ووصلت الى انطاكية، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين ، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الأسوار، لكن أنانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الفشل والهزيمة .

ويصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان، الحالة اثناء

الحصار بقوله: «أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملون هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز، ولا يشرب الماء لمن معه الماء، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمانينتنا، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ٠٠٠٠ أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا، تاركة أيهم مابين جريح وقتيل بسهامها، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها إلا ليلا أو خفاء، وبذلك كنا نعاني الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف ».

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس أندراوس قد تراءى له، وقال له : « إنني الحواري أندراوس، اسمع يا بني: عرج على كنيسة القديس بطرس - القسبان - وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح الذي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب »، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسبان الذي بأنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه، وعفا أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: ابشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال: لاتفعلوا أمهلوهم حتى

يتكامل خروجهم فنقتلهم، ولم يمكن من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين، فجاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية أحد منهم ضربوا مصافا عظيما، فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم، وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج، وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم*.

إن في رواية ابن الأثير من أن الهزيمة قد تمت على المسلمين» ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم «مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك أن صاحب أعمال الفرنجة، وهو شاهد عيان، يذكر خلاف ذلك، فهو يقول:» بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة أيام، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في شتى الكنائس، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه، ثم وزعوا الصدقات، وأقاموا القداسات*.

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة، أما الفرقة الأولى التي تقدمت سواها فكان بها هييج العظيم وبصحبته الفرنديون وكونت فلاندر وفي الثانية دوق جودفري ورجاله، وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة اسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص، وكان معه رجاله واتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه، ومنعاهم من النزول الى المدينة، وكان في الفريق الخامس تنكريد - ابن المركيز - بصحبة رجاله، وفي الكتيبة السادسة بوهيمند الفطن مع فرسانه*.

ولما تدثر أساقفنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحللهم المقدسة خرجوا معنا حاملين الصليبان، ممجدين السيد ومبتهلين اليه أن ينقذنا ويقينا من كل شر، بينما اعتلى آخرون الباب رافعين الصليب المقدس في أيديهم ورسوموا علينا علامة الصليب وباركونا، ولما

تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب المقابل للمحمرة.

ولما رأى كربو قاما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي خارجة واحدة في اثر الأخرى قال : « دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا حينذاك خيرا مما لو كانوا في أيدينا » ، الا انه ما كاد يرى جيوش الفرنجة اللجة تغادر الأبواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان ما أمر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذ شاهد النار تتأجج في مقدمة الجيش ، اذ تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر الجبل ، ورجالنا في اثره بنفس الخطى ، ثم اندشطر الترك شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق الآخر في مكانهم مؤملين ان يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بمبايبيته العدو لهم ففعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق جودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى الجبل شاغلة مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين وأحدقت برجالنا تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على جانب البحر ان لم تعد لهم قدرة على المقاومة أضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم ويلوذوا بالفرار . فلما تبين هؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم ، وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق جودفري وهيج العظيم وكونت فلاندر الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدرعوا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، اما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا واياهم في القتال ، وتغلبننا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزغ على الترك فانتالوا هاربين، ومضى رجالنا في
أثارهم حتى خيامهم وآثر فرسان المسيح أن يقصوهم، وراوا أن
قصهم إياهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمية، وظلوا في أعقابهم
حتى جسر العاصي.... فخلى العدو وراءه خيمه وذهب وفضته
وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير
والحنطة والنبذ والطحين، وكثيرا غير ذلك مما كان يلزمنا « ٠

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م،
وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا، وكان قبل أن
تسقط انطاكية، وحتى قبل أن يصل الصليبيون إليها أن انفصلت
منهم فئة بقيادة بلدوين أخو جودفري - الذي سيكون أول ملك لمملكة
القدس اللاتينية - وتوجهت من مرعش شرقا، فتمكنت من
الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الإسلامية البيزنطية، وأخيرا
وصلت إلى الرها فاحتلتها، واتخذت منها قاعدة لاجدى إمارات
الصليبيين في المشرق، وكان من أسباب نجاح هذه الفئة ومن أسباب
النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا
يدينون بالمسيحية وكانوا إما سريانا أو من أصل أرمني (١٩) يضاف
إلى هذا أن سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية،
مكروهة وليس لها قواعد متينة ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد
الفرنجة كان على طريقة البدو في قاعدة الكر والفر، ثم إن الأرض لم
تكن « بعد » أرضا تركمانية، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع
الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم، وربما وجد شيء يسير من
الشعور الديني، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان « ٠

زحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا، وذلك بعد أن جعلوا انطاكية
مركزا لإمارة صليبية ثانية في المشرق، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا
أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها
خاصة في المنطقة الغربية فلقد استولوا على البارة، واتوا على معرة
النعمان وعلى معظم من كان فيها من سكان، وأخذوا يجردون حلب
من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا إلى أسوار المدينة، ولقد ضعف

امر رضوان في حلب كثيرا ، فاخذ يفتش عن مخرج يحتفظ به بحكمه في حلب ، وبات يبحث عن حلفاء يساعده في الابقاء على حكمه ، واذا امكن في الاستيلاء على بعض الاراضي التي كانت في ايدي بعض الحكام المسلمين مثل افامية وحمص ودمشق ، ولقد وجد في اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة التي اسسها حسن الصباح الحليف . ومنح رضوان اتباع هذه الدعوة ودعاتها حرية العمل والتصرف بحلب ، ولقد اغضب هذا كله اهالي حلب ، ودفعهم للعمل للتخلص من رضوان ، ولقد قاد المجن الفوعي بركات بن فارس ، رئيس حلب ومقدم احداثها الحركة ضد رضوان ، « وكان هذا المجن اولاً من جملة اللصوص الشطار وقطاع الطرق الذعار ، فاستتابه قسيم اق سنقر ، وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين ، وكان في حال اللصوصية يصلي العشاء الاخرة بالفوعة (٢٠) ، ويسري الى حلب ويسرق منها شيئا ويخرج ، ويصلي الفجر بالفوعة فاذا اتهم بالسرقة احضر من يشهد له انه صلى العشاء بالفوعة والصبح ، فيبرئونه .

واستمر على رئاسة حلب في ايام قسيم الدولة ، وَايام تاج الدولة ، وبعده في ايام رضوان ، وامتدت يده ، وحكم على القضاة ومن دونهم ... وكان كثير السعاية في قتل النفوس وسفك الدماء ، واخذ الاموال وارتاب الظلم .

واعلن المجن الثورة على رضوان ، وتعصب معه الحلبيون وساعده فسيطر على مدينة حلب ، وحصر رضوان في القلعة ، وهنا « امر رضوان مناديا نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع ، فانقلب الاحداث عنه » وخذله الحلبيون وتخاضلوا عنه ، وايد الاحداث الرئيس الجديد واعطوه ولاءهم ، وقد اضعف هذا موقف المجن فاضطر الى الاختفاء وبعد فترة القى رضوان القبض عليه وعلى اولاده ونويه ، واودع رضوان المجن السجن ، وهناك « عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، واراد بذلك ان يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه احمى الطشت حتى صار كالنار ، ووضع على راسه

ونفخ في دبره بكير الحداد ، وثقب كعابه ، وضرب فيها الرز و الحلق .

ولما وضع النجار المذئب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المذئب ، فلطمه المجن وقال: ويالك لاتعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المذئب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له: كيف تجد طعم الحديد ؟ فقال: قولوا للحديد: كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك رضوان من ماله إلا ما أقربه غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، واستغنى جماعة من أهل حلب من ماله .

ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج الى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ومعه ابنان له شابان مقتبلا الشهاب ، فقتلا قبله . وهو ينظر إليهما ولا يتكلم .

ثم قتل بعد ذلك في سنة إحدى وتسعين (١٠٩٨ م) وسلمت رئاسة حلب الى صاعد بن بديع ، ولما قدم المجن للقتل صاح بصوت عال : يامعشر أهل حلب من كان لي عنده مال ، فهو في حل منه « (٢١) .

وازدادت مع الأيام قوة الصليبيين في الشام ، فتمكنوا من احتلال مدينة القدس ، حيث اقترفوا مذبحة شنيعة مروعة ذهب ضحيتها سكان المدينة ، ولقد ترك لنا صاحب أعمال الفرنجة وصفا لسقوط القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ م ، فقال : « تقدم واحد من فرساننا واسمه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وماكاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكلا سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ... ولما ولج حجاجنا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء

المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال، كما أخذوا في نهب البيوت المملئة بالثروات.

اشتد الاسرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم. ثم سجدوا امام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساء، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل. وصدر الامر. بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم، ولأن المدينة كادت ان تكون باجمعها مملوءة بجثثهم، فقام الشرقيون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس وطرحهم امام الابواب، وتعالى اكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا وما تاتى لاحد قط ان سمع او رأى مذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب «المسلم».

ومع ازدياد قوة الصليبيين تقلصت قوة حكام الشام من التركمان ونقصت مساحة اراضي دولهم، كما ازدادت خلافاتهم وتواصلت فرقته، ففي شعبان ٤٩٣ هـ /حزيران ١١٠٠ م حقق الصليبيون انتصارا كبيرا على رضوان بن تتش وعسكر حلب. فقتلوا خلقا من الناس واسروا خلقا. وفي هذا الوقت كان دقاق بن تتش وعساكره يحاربون في الجزيرة وطبعا ليس ضد الفرنجة، إنما ضد التركمان حكام الرحبة وديار بكر وميافارقين، واحتل دقاق ميافارقين ثم رتب فيها من ينوب عنه وعاد الى دمشق.

ولم يذس رضوان ما حل به حمص، ولم تمت مطامعه فيها، فدبر مع مقدم الاسماعيلية اتباع الدعوة الجديدة (او الحشيشية كما دعاهم اهل الشام) في حلب، أمر اغتيال جناح الدولة حسين، وفي رجب سنة ٤٩٦ هـ /مايس سنة ١١٠٣ م وثب قوم من الباطنية كانوا في زي الصوفية عليه فاردوه قتيلا في جامع حمص عندما وقف ليؤدي صلاة الجمعة، ولم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، فقد راسل الذين تسلموا زمام الامور بها بعد الاغتيال دقاق صاحب دمشق فأسرع بالمجيء إليها « وتسلمها، واحسن الى اولاد

جناح الدولة، وسار بهم الى دمشق، فأقر عليهم أقطاع أبيهم « .

ويبدو أن عملية اغتيال جناح الدولة شجعت طغتكين اتابك دمشق للتخلص من دقاق، ولقد تولت أم دقاق - زوج طغتكين - مهمة التخلص من أبنها، فزينت « له جارية، فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته ثقبته بآبرة فيها خيط مسموم «، وكان هذا في العام الذي تلا عام اغتيال جناح الدولة (٢٢) .

وفي العام الذي تلا وفاء دقاق - أي ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ - ١١٠٥ م أوقع الصليبيون برضوان بن تتش وأهالي حلب هزيمة كبيرة جديدة قرب أرتاح - وهو حصن كان يقع قرب حلب - ، ولقد قتل من المسلمين في هذه المعركة « مقدار ثلاثة آلاف ما بين فارس وراجل، وهرب من أرتاح من المسلمين، وقصد الفرنج بلد حلب فأجفل أهله، ونهب من نهب، وسبي من سبي، واضطربت أحوال حلب ... وتبدل الخوف بعد الأمن والسكون » وجرّد الفرنجة حلب من معظم أملاكها الى درجة أنه « لم يبق في يد الملك رضوان من الأعمال القبلية إلا حماه، وليس في يده من الأعمال الغربية شيء، وبقي في يده الأعمال الشرقية والشمالية وهي غير آمنة » .

وضاق الأمر بأهل حلب، فمضى بعضهم (في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) الى بغداد واستغاثوا في أيام الجمع، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج، وكسروا بعض المنابر فجهز السلطان محمد بن ملك شاه (الذي خلف بركياروق) مودود صاحب الموصل، وأحمديل الكردي، وسكمان القطبي في عساكر عظيمة ضخمة، ومات سكمان قبل وصوله الى حلب، ووصلت العساكر الى حلب، فأغلق رضوان أبواب حلب في وجوهم، وأخذ الى القلعة رهائن عنده من أهلها لئلا يسلموها، ورتب قوما من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، ٠٠٠ وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه، وكثرت اللصوص

وخاف الأعيان على أنفسهم، وساء تدبير الملك رضوان، فاطلق العوام السنتهم بسبه وتعديبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد، وترك الركوب بينهم، وبسّ الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر - أي عساكر مودود وأصحابه - فيأخذونه « .

واضطر مودود وأصحابه إلى الرحيل جنوباً، وقرب شيزر انتصروا على فئة من الصليبيين، وقام تحالف بين مودود وطلغتكين اتابك دمشق لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧ هـ / ١٥ تشرين الأول ١١١٣ م، وكان مغتاله من الحشيشية، ولاذري مدى حصّة رضوان في الاعداد لهذا الاغتيال، ومهما يكن الحال فإن رضوانا لم ينعم بالحياة طويلاً بعده حيث توفي هو الآخر في كانون الأول من السنة نفسها - ١١١٣ م .

ولقد « كان الملك رضوان بخيلاً شحيحاً يحب المال، ولا تسمح نفسه باخراجه، حتى أن أمراءه وكتابه كانوا ينزونه بأبي حبه، وذلك هو الذي أضعف أمره وأفسد حاله مع الفرنج والباطنية، وجدد في حلب مكوساً وضرائب لم تكن « . وعندما توفي رضوان ترك شمالي بلاد الشام في حالة لا تحسد عليها، ولقد خلفه في حكم حلب ابنه الب أرسلان، وكان الب أرسلان هذا صبياً في التاسعة عشر من عمره « الثغما لا يحسن الكلام، فدعي بالأخرس لذلك، وكان مهوراً قليل العقل سفاكاً للدم منهمكاً في المعاصي » .

ولقد افتتح حكمه بقتل اثنين من أولاد أبيه، وتدهورت أحوال حلب في زمنه كثيراً، ولقد سبب حمقه انفضاض من بقي من الناس من حوله ، وفي زيادة الدمار في شمالي الشام، وخاف رجال الحكم في حلب على أنفسهم منه، فدبروا اغتياله، وكان ذلك بعد سنة من وفاة والده رضوان (٢٣) وبمقتله طويت آخر صفحات حكم أسرة تتش في الشام، ولقد كانت صفحات قائمة ليس فيها إلا الدمار والقتل .

وفي ساعات الظلام الدامس هذه التي كانت مخيمة على الشام،

كانت هناك تباشير للنور أخذت تلوح مشرقة من المشرق حيث
الموصل، ومن الموصل أخذ النور يزداد حتى عم الشام كله ثم انتقل
الى مصر • إن هذا سيكون موضوع مجلدات قادمة تلي هذا المجلد
إن شاء الله •